الطيور التي تخيف نحن نخيفها | "Catastrophe" ينقلب رأساً على عقب

تجهيز

في "بيت زيكو" او "زيكو هاوس"، تدخل الطيور إلى الطبقة الثانية من الشرفة. تدخل الطيور لتستقر في تجهيز فني لجان مارك نحاس، تم افتتاحه مساء الأربعاء 6 كانون الاول، بدعوة من "مركز أمم للأبحاث والتوثيق". وهو الذي تأجل عرضه إلى ما بعد الحرب الأخيرة، ثم نُقل مكانه من "هنغار أمم" الكائن في محلة الغبيري، حارة حريك، إلى "زيكو هاوس" في الصنائع، على خلفية الأضرار التي أصابت الهنغار جراء القصف الاسرائيلي على منطقة الضاحية.

إلا أن هذا النقل الاضطراري، قد يكون جاء في مصلحة العمل الفني المرتبط بشكل أساسي في تركيبه، بفكرة الخوف، او بالطريقة التي يقتحم بها الخوف الأماكن الخاصة للناس. وهذا ما يحققه، كون المكان بيتاً، وبيتاً قديماً يشبه البيوت في الأفلام "الهيتشكوكية"، وخصوصاً البيت الأساسي لفيلم "الطيور". بين الطيور التي تمر كي تزرع الخوف في فيلم هيتشكوك "The Birds" الذي يتوسل به التجهيز كمثال درامي، وبين الطيور المصنوعة من كرتون، والمعلقة إلى سقف البيت القديم الجميل حيث يسكن التجهيز المدعو "رأساً على عقب" بالعربية، و"Catastrophe" أي "كارثة" بالفرنسية، يضيع الكثير من معاني الرعب.

تدخل إلى التجهيز ذي الأضواء الخافتة، كأنك داخلٌ إلى بيت قديم، ومن العنوان يمكنك أن تبني افتراضاً، أن شيئاً كارثياً قد يحدث. المكان مقسم أربعة أقسام، الاول هو المدخل، "كوريدور" ضيق (أقل من متر)، أما الثاني فالصالة الكبيرة، حيث كنبة فاخرة، كثيرة الأناقة، نظيفة إلى أقصى الحدود، عربية الطراز توحي بالاستقرار، على الرغم من التجهيز الذي يحتل المكان. القسم الثالث هو الشرفة. في هذه الأقسام الثلاثة نمط واحد للتجهيز، هو أجسام على شكل طيور تتدلى من السقف، ولوحات معلقة على الحائط. أما القسم الرابع ففرفة جانبية مظلمة يُعرض فيها فيلم "الطيور".

يستخدم "نحاس" الورق، في صناعة "طيوره" التي أرادها مخيفة كما هي في فيلم "الطيور". الورق ليس مادة مخيفة، ولا يستطيع في أي شكل من الأشكال أن يزرع الخوف في عقول المشاهدين. إذ يمكن هؤلاء أن يتجولوا أحراراً بين "الطيور" المعلقة إلى السقف، ويسمحوا لأجسادهم بأن ترتطم بأجسادها من غير أن يخشوا أي أذى، بل يخشون على الطيور الهشة أن تتخرب. هذه الطيور المصنوعة من ورق، تذكّر بأغنية فيروز "قصقص ورق ساويهم ناس"، لكن الاوراق لا تستطيع أن تصبح أناساً. لا يكفي أن يمنح نحاس أشكاله أسماءً كي تكون هذه الأشكال متوافقة مع الأسماء الممنوحة لها. كي تتضح الصورة أكثر، فلنفترض أن نحاس كان أتانا بطيور حقيقية، بحمامات مثلاً، بنوارس، او حتى بصقور، وملأ بها كامل الغرفة الفارغة التي تضمّ التجهيز، لكان هذا أفزعنا بالفعل، ولعدلَ الكثيرون عن الدخول ضمن هذه المساحة. إلا أن "الطيور المعلقة" تبدو زينة لعيد، مربوطة إلى السقف بشبكة من الأشرطة المعدنية الظامرة للعيان. ما يضاعف الاحساس بأن هذه الأجسام التي تتخذ أشكال طيور هي موضوع للزينة لا أكثر، هذان الجسمان المعروضان داخل الغرفة الصغيرة المجاورة للقاعة الأساسية، حيث يتم عرض الفيلم. في هذه الغرفة لم يتم تغيير أي شيء داخلها، فهي إذا كانت تستخدم كمكتب قبل التجهيز، فلا يزال فرش المكتب كما هو خلاله، بالكومبيوتر وبجميع الأدوات المكتبية. لم يتغير شيء في الغرفة سوى أن نحاس أضاف إلى "ديكور" المكتب جسمين من أجسامه على شكل طيرين، ووضعهما تماماً كما توضع الطيور المحنطة في البيوت البورجوازية فوق إحدى الخزانات. ولكي تتوافق الرغبة التزيينية، يضع نحاس لوحة من لوحاته القديمة، مختلفة تمام الاختلاف، على حائط الغرفة. بهذا يصبح "ديكور" الغرفة أجمل. في الغرفة المظلمة هذه، يتم عرض فيلم من أروع روائع السينما في تاريخها، وقد يكون الفيلم الأقدر على تلخيص معنى الخوف. فإذا كان اختيار الفيلم صائباً في هذا المكان، فإن شكل العرض "الأيقوني" للفيلم يجعله فرجة. أما الطريقة التي قدم لنا نحاس بها "الطيور" لألفرد هيتشكوك من انتاج 1963، فهي عرضه داخل غرفة مغلقة، "تتنقوز" على الفيلم من خلال شقّ في الباب الذي يفصل بين الغرفة المظلمة والصالة الأساسية. يمكنك أن ترى آلة العرض، كما يمكنك أن ترى الضوء الذي يخرج من الآلة ليرتطم بالشاشة حيث يعرض الفيلم. رؤيتك لهذا، تجعلك خارجاً على سياق العرض الذي يفترض أن تكون داخل مساحة الشعاع بين آلة العرض والشاشة. فأنت هنا ترى آلية العرض لكنك لست ضمنه، وهذا ما يمكننا أن نسميه عرضاً "أيقونياً" للفيلم، لنقع من جديد في فخ التزيين. فيلم "الطيور" لهيتشكوك وضع هناك في الغرفة المظلمة وحيداً كأيقونة تزيد المساحة رونقاً.

على جدران المدخل الضيق، والصالة الكبيرة، يزرع التجهيز بعضاً من ثماني لوحات كبيرة. تتظاهر هذه اللوحات بالتعبير عن الخوف الذي يعيشه المواطن العادي في أوضاع غير عادية. مساحة اللوحة الكبيرة، تنقسم بشكل توفيقي، عدداً من المربعات والمستطيلات الصغيرة تحوي الكثير من التشكيلات بالحبر الأسود، او الأزرق على مساحة بيضاء. لا تسمح لك كمية هذه اللوحات الصغيرة بتمييز كل لوحة على حدة. اللوحات الكبيرة تلفي فردية كل لوحة، وتجعلها مجتمعةً، قيمة واحدة يراد بها التعبير عن مظهر واحد هو الفزع. فكأن اللوحات بذلك "تتظاهر" او "تعتصم"، كي تبرهن عن وجهة نظرها. يتوسل التجهيز بذلك طريقة الشارع الذي يعتصم بأعداد كبيرة تلغي الفردية وتجمعها في مطلب واحد، على الرغم من أنه في إعلان النيات الذي يوزع داخل المعرض، يفصح عن رغبته في تحذير الناس من الانقسام الذي قد يؤدي إلى حرب ما، آتية.

يفترض التجهيز في تركيبه أن الطيور دخلت من الشرفة إلى هذا البيت. لكن الشرفة مفصولة عن الصالة الداخلية بواجهة زجاجية كبيرة مغلقة. إذاً كيف دخلت الطيور؟! لا نعلم. على الرغم من أن الطيور دخلت إلى المنزل، إلا أن المنزل لا يزال نظيفاً، حتى أن الكنبة الحمراء تغري بالجلوس والراحة، فكيف للطيور أن تدخل منزلاً ذا باب موصد، من غير أن تهشّم الزجاج مثلاً، او أن تترك آثارها على الفرش والأرض والمساحة؟!

أما من ناحية الحركة، فإن الفرد المشاهد هو الذي يتحرك بين الأجسام المفترضة، يتحرك ويرتطم بها، لكنها لا تحرك ساكناً ولا تتحرك. كيف لهذه الأجسام الثابتة مكانها أن تخيف؟ كيف لهذه "الطيور" المزيفة الكثيرة، أن تخلق حالاً من الرعب فيما هي جامدة، معلقة إلى سقف فارغ؟

نحاس، الذي يعترف بأنه أتى الى فن التجهيز من باب الرسم، وفن اللوحة، يبتعد كثيراً عن مبتغاه في تجهيزه الاول. فبدلاً من أن تخيفنا الطيور، نحن الذين نخيفها، ونعلقها في السقف، ونجعلها ورقيةً هشة، جامدة، او نضعها للزينة والتفرج، ونمنعها من الطيران والحركة، ومن ثم نتظاهر ضدها، متخوفين من الكارثة التي جلبتها معها. تجهيز "Catastrophe" لجان مارك نحاس ينقلب رأساً على عقب.

علي زراقط